رحيـل

يرقد على سريره في هذه الغرفة الصغيرة، قد أقعده المرض، أصبح مجرد هيكل عظمي، عينان غائبتان ضيقتان، صدره يعلو ويهبط، قد مات العالم من حوله، يجلس عند رأسه بعض الأقارب والأصدقاء، نظراتهم تبعث على الرثاء، التفت إلى الحاج خليل قائلًا:

ـ والدك هذا من أطيب الناس الذين عرفتهم في حياتي، لم يذكر أحدًا بسوءٍ طوال حياته.

أردف مؤذن مسجد الحطية وأصابعه تداعب المسبحة:

ـ منذ أن عرفته هذا الحاج لم يتأخر عن صلاة الجماعة في المسجد، حتى في الشتاء القارص كنت أجده قد حضر لصلاة الفجر.

أضاف جارنا حمزة:

ـ والدك هذا رجل نزيه عصامي لا يأكل دائمًا إلا من عمل يده، أتذكر إنه بعد أن أحيل على المعاش وأصبح يتقاضى

مرتب الضمان، تحصل على عمل حارس في شركة، فذهب للضمان وألغى معاشه، واكتفى براتب واحد من الحراسة..

في تلك اللحظة لمحت أمي القصيرة القامة، بردائها الباهت تتسمر عند الباب، متسائلة في حيرة وقلق:

ـ كبيف هو الآن؟ اقتربت من أبي المسجى على الفراش تحسست أطرافه تبدو باردة كالثلج، بينما صدره يعلو ويهبط بعد برهة قلتُ لها:

ـ يبدو كما هو يلطف الله به.

ظلت واقفة في ارتباك ظاهر بينما اقترب منه الحاج خليل، وأمسك بقطنة مبللة، وشرع يمسح بها على شفتيه اليابستين.. اصطكت أسنان أبي ببعضها في حشرجة تخرج من فمه يخاطبه الحاج خليل:

ـ تشهد يا حاج تشهد..

بصوت واهن متقطع أخذ يردد:

ـ أشهد أن لا إله .. إلا الله.

ثم توقف نهائيًا عن الحركةِ وأسبل جفنيه، ولفظ أنفاسه الأخيرة.

هتف الحاج خليل في نبرة من الحزن بينما ردد معه الحاضرون:

ـ إنا لله وإنا إليه راجعون.

أطلقت أمي صرخة مدوية على أثرها أقبلت النسوة وشرعنا في العويل والصراخ أمام البيت، سحبت الغطاء على وجه أبي المبتسم، وقد اغرورقت عيناي بالدموع، أحسست بغصةٍ في حلقي وحزنٍ، وبكيت على أبي لأول مرة في حياتي.